كان وقبائلها «31»

محمد القعود
Kood500@hotmail.com

كان الياء
يمدّ شجنه إلى ميمه
ويمسح عن نونه غبار العاصفة،
يفتح ذراعيه الملأى بالحب
ويطير محلّقاً فوق الفصول والأبجدية..

كان التغيير
يبحث عن عصا يتعكّز عليها
في طريقه المكتظ بالوجوه الصفراء،
ويتحسس سيره بين العميان..

كان التغيير
يبحث عن وسادةٍ لينام عليها
كي يحلم بغدٍ خالٍ من لصوص المبادئ
وخالٍ من مسيرات حروف العطف،
وخالٍ من الألوان الكئيبة،
وأوهام العقول المريضة..

كان التغيير
يطل على الناس من شرفة المحبة
وينكر أية صلةٍ له بمروّجي الأراجيف
وحبوب الهلوسة
ويتبرّأ من جميع الشوارع
التي تأوي حناجر الحروف المجوّفة
ويتنصّل من كل هتاف
لا ينبض بحب الأرض والناس..

كان التغيير
يبحث عن تغييرٍ
ينمو بصورة طبيعية
ويتغذى على حليبٍ كامل الوطنية،
خالٍ من فيروسات الأيديولوجيا الخبيثة..

كان التغيير
يمتشق «جنبيته» العتيقة
ويحلم بساحته التي لم تولد بعد
كي يرقص رقصة يمانية خالصة
لوجه الحب،
رقصة تفوح بعنفوانه
وترفض تقليد الآخرين..

كان الشتات
يؤلم لشياطينه الصغار
ويُلقي عليهم وصاياه الأبوية..
يوصيهم شراً بكل جمعٍ
وبنشر مذهبه الشره
وبتمزيق كل ممزقٍ
وبنخر كل سدٍّ منيعٍ..

كان الشتات
يزوّد أولاده الكثر بنصائحه الذهبية
ويدعوهم إلى مد نفوذ الشتات الأكبر
وتأسيس عصرهم الموعود،
ومباركة كل خطوةٍ
تسير في طريق الضياع/الصراع..

كان الشتات
ينظر إلى الأفق الغائم
ويبتسم مستبشراً بغربان المجهول،
يدندن بأغنية مبتذلة
ويغمز للخارطة بأمنية سوداء
ورحلة/ليلة عقيمة، لا ضوء لها..

كان البؤس
يعد أوراقه للالتحاق بوظيفته الجديدة،
ويخطط لمستقبل خطواته القادمة
ويحلم بتحقيق أهدافه المؤجلة،
ويعد قبيلته بالقضاء على آخر ابتسامةٍ
في وجه الأيام..

كان البؤس
يمسح من قدميه الصديد المتراكم
ويمنّيها بمرحلة مرفّهةٍ
وبطريق خالٍ من حواجز الأخلاق الحميدة
وبأحذيةٍ جديدة..

كان البؤس
يتعلّم التحدث بلغة مراوغة ودبلوماسية
ويدرّب أصابعه على النشل
وسرقة جيوب المستقبل..
ويحاول أن يتجمّل بمحسّنات العولمة
ويطمئن أعداء الحياة
بالتصدي لكل بشائر الربيع
ومكافحة أناشيد الفرح..

كان المجد
يقف وحيداً وسط الطريق،
يرفض الذهاب مع الذاهبين إلى الأسئلة
البعيدة،
ويرفض الطلوع فوق السيارة المحصنة
ويرفض السهر تحت أزيز الأنانية
ويرفض مد يده إلى اللاعبين بمكرٍ
ويرفض مصافحة المقامرين بمشهدٍ النهاية
ويرفض التحدث باسم الآخرين..

كان المجد
يلعك صمته القديس
ويمنح طرفه لحبه الكبير
غير مبالٍ بتعتعة مزاعم الرماد..

كان المتن
يتغاضى عن فوضى الهامش،
يتجرّع غصّة القرابة
ويغفر لصبيانه خربشاتهم الموجعة..

كان المتن
يشغل أصابعه بحياكة سور عالٍ
يرد عن الأرض جراد المجاعة
ويرد الخفافيش إلى ماضيها
ويمنع جرذان الخوف
من التسلل إلى الحقول الآمنة..

كان المتن
يطلق نهدته الحارقة
ويواسي نفسه بالصبر الجميل،
يمسح جروحه المتكاثرة
ويسدل بلسم النسيان
على انبعاجات الهامش المتمردة..

كان الغدر
يسير خلف هتاف الإخاء
يبيّض كمائنه على الطرق الآمنة
ويقيم حواجزه باسم السلامة العامة،
يقدم الشاي إلى العابرين نحو المجهول
ويبتسم لهم ابتسامة حانية،
وفي منتصف الأغنية
ينقض على جميع الكائنات الجميلة..

كان الغدر
يعزف على جميع أوتار الوطنية
ويغني من أجل حمامة السلام
ويتبرّع لشهداء الوطن
وعندما تنام الجروح لبرهةٍ قصيرة
يخطف الأرغفة من أفواه الصغار الجوعى..

كان الغدر
يشق طرقاً جديدة لأحذيته الطامحة
باعتلاء قمم الجبال
ويضع عند أول كل شارعٍ
باقة وردٍ مفخّخة بمتاهاتٍ جديدة..

كان السؤال
يطوف بفوانيسه مدن الخارطة
ويتوغل في عتمة الشوارع المهجورة،
وليل الصفقات السرية
ويمر جوار أضرحة الخطى الغريبة،
وينتظر عند كل إشارة مرور
وخلف كل علامة تعجب
لعله يجد من يأخذ بيده
إلى منارة تعرف أسرار العواصف،
وإلى ظل شجرةٍ تدثّره بالحكمة الغائبة..

كان السؤال
يترجم نفسه إلى جميع أحاسيس البشر،
ويفتح وجدانه لجميع الطيور المهاجرة،
ويحدّق في البعيد
لعله يتسلم رسالة من أبنائه الغائبين،
يخبرونه عن زهرة أعمارهم
التي يحاصرها الاغتراب،
وعن خطاهم التي مازالت
تبحث عن طريق خالٍ من المفاجاءات.

كان السؤال
يجلس كل يوم عند أول الآهة
وينفق وقته في التدخين والتأمل
وانتظار تلويحة حبٍ بعيدة..

■ مقاطع من نص/ شجنٍ طويل

إصدارات ثقافية

الافلام والرؤية الأخلاقية الأميركية للطبيعة

■ ما هي رؤية الأميركيين للطبيعة؟ وكيف تتم ترجمة هذه الرؤية في عالم السينما والتوثيق السينمائي؟ هذان السؤالان يجيب عليهما الكاتب والمنتج والمخرج الأميركي للأفلام الوثائقية رونالد توبياس في كتابه الذي يحمل عنوان: «الأفلام والرؤية الأخلاقية الأميركية للطبيعة». وهو يحدد مجال دراسته في الفترة التي تغطي الأعمال المنجزة منذ تيودور روزفلت وحتى والت ديزني».

إن رونالد توبياس يبدأ البحث عن مسار تطوّر لمواقف الأميركيين حيال الطبيعة. والفكرة الأساسية التي يركز عليها هي أن هذه المواقف تتسم حتى اليوم بكثير من التناقض والتعقيد.

كما أنها ليست بعيدة عن «أحلام الإمبراطورية» التي تدغدغ مخيلة الأميركيين. وإذا كانت تتم دراسة هذه المواقف كما بدت لدى تيودور روزفلت، فإن المؤلف يتقصّى امتداداتها لدى آخرين مثل جيس بوفالو جونس وبول رايني ومارتن جونسون ووالت ديزني وغيرهم.

ويؤكد المؤلف أن كريستوفر كولومبوس عندما وصل إلى أميركا الشمالية، معتقدا آنذاك أنه وصل إلى الهند حمل معه موقفا أوروبيا خاصا حيال الطبيعة. ذلك الموقف أثّر وتأثر على مدى عدة قرون لاحقة بمواقف الشعوب من سكان البلاد الأصليين. ولم يكن تطوّر تلك المواقف بعيدا أيضا عن عوامل أخرى في مقدمتها تطور التكنولوجيات والحروب وتضاؤل مساحة الأراضي القابلة للزراعة.

محصلة ذلك كله كانت وراء «التغيّر المستمر» لموقف الإنسان الأميركي حيال الطبيعة وحيال المحيط الذي يعيش فيه. ومنذ البداية كان للأميركيين علاقة مع محيطهم تتسم بالتناقض تبعا لمصالح المعنيين بها. وكان تطوّر المنظومة الاقتصادية الأميركية قد ساهم في صعود طبقة من التجّار الطامحين إلى زيادة ثرواتهم والتطلع إلى ثروات العالم أجمع. المراحل والمنعطفات الأساسية في الرؤية الأميركية الأخلاقية للطبيعة وجدت أصداءها في الأعمال السينمائية الوثائقية وغيرها.

وبهذا المعنى يرى المؤلف أن «تيودور روزفلت» لم يأسر مشاعر الأميركيين بشخصيته القوية وبصياغته للسياسة الخارجية الأميركية فحسب، ولكن بالنظرة التي أكّد عليها فيما يخص «العلاقة مع الطبيعة وآثارها المستقبلية».

ويحدد المؤلف القول ان المسائل الأساسية المتعلقة بتلوث الطبيعة وحماية البيئة غدت في الحقبة الراهنة أحد مواضيع الاهتمام بالنسبة للعاملين في الحقل السينمائي عامة.

هذا خاصة أن التغيّر المناخي يبدو لكثر أنه أحد أكبر التهديدات التي تحيط بكوكبنا. يتم التأكيد في هذا السياق أن إحدى مهمات الفن الكبرى، وخاصة عالم الصورة بكل مشاربها، تتمثل في زرع الاهتمام بهذه القضية لدى الجيل القادم. من هنا أيضا تأتي ضرورة التوجه تحديدا للأطفال.

وينقل المؤلف عن والت ديزني قوله: «عليكم أن تنسوا الكبار، وإذا كنتم تريدون التغيير فعليكم التحدث للأطفال».

تتم الإشارة هنا أيضا إلى أن العديد من أفلام الصور المتحركة «الكرتون» التي يقدمها والت ديزني تحمل رسائل بليغة باتجاه ضرورة صياغة رؤية جديدة للطبيعة. وعلى خلفيّة أهمية التوجّه للأطفال تأتي ضخامة «رهان الانترنت» الذي يمثل عالم الأطفال بامتياز.

ومن الرسائل التي «يقرؤها» المؤلف في أعمال العديد من العاملين في حقل الصورة والسينما، يركز على تلك التي يلخصها بالقول إن «الأرض هي بصدد الهلاك بسبب نقص العناية بها». والتأكيد أيضا على أن الأزمة قريبة، لكن السؤال الجوهري يتعلّق بمعرفة مصير البشر الذين يعيشون عليها.

ورسالة أساسية يستخرجها المؤلف من مجمل ما تقوله الصور السينمائية عن الطبيعة هي أن الهدف وراء أغلبية ما نشاهده يتمثل في الوصول إلى لحظة يمكن للبشر أن يستنشقوا فيها الهواء بعمق ويطلقونه بهدوء. والتأكيد أن هناك أشياء كثيرة يمكن أن نتعلّمها من السينما.

الكتاب: الأفلام والرؤية الأخلاقية الأميركية للطبيعة
تأليف: رونالد توبياس
الناشر: جامعة ميتشيغان ٢٠١١
الصفحات: ٣٢٠ صفحة
القطع : المتوسط

الأخلاق والحرب

■ عادت في السنوات الأخيرة مقولة «الحرب العادلة» إلى ساحة النقاشات الإستراتيجية في الغرب والعالم. كان ذلك بعد نهاية حقبة القناعات الإستراتيجية الثابتة التي سادت خلال عقود الحرب الباردة. وترافقت النقاشات بالتأكيد على ضرورة احترام البعد الأخلاقي فيما يخص أين ومتى وكيف يتم اللجوء إلى الحرب؟ الإجابة على مثل هذه التساؤلات هي موضوع كتاب الباحث البريطاني دافيد فيشر الذي يحمل عنوان: «الأخلاق والحرب».

السؤال الأولي الذي يطرحه المؤلف هو التالي: هل يمكن لنظريات حربية تعود إلى العصور الوسطى مساعدتنا في حل المشاكل الدفاعية في القرن الحادي والعشرين؟ ثم يشرح على مدى صفحات هذا الكتاب كيف أن الحرب ينبغي أن تستجيب للمعايير الأخلاقية. هذا على خلفية تفحّص التحديات التي يطرحها الفكر الفلسفي لمفهوم الحرب العادلة ومختلف النظريات ذات النزعات المشككة بالأخلاق والتركيز على النظرية النسبية.

إن المؤلف يستعرض في تحليلاته ما يسميه العلاقات بين الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة. هذا على أساس أن الحرب لا تعني فقط رجال السياسة والجنرالات، لكنها تعني أيضاً، وخاصة، البشر العاديين. ذلك تحديداً في منظور التركيز على مفهوم الحرب العادلة من أجل حل المشاكل المعاصرة، الأمر الذي لا بد وأن يكون له، كما يؤكد المؤلف، آثاره على العلاقات الدولية، بل وأيضاً على الفكر الفلسفي.

ويؤكد دافيد فيشر على عدد من المبادئ الأخلاقية التي لا بد لها وأن يتم احترامها في ميادين الحروب. المبدأ الأول هو أن لا شيء أبداً يبيح قتل الأبرياء. هذا المبدأ لا يقبل الاستثناء.

لكن مثل هذه المقولة تحتاج إلى نقاش، كما يرى المؤلف، في بعض الحالات. فمثلاً إذا كان المرء قبطان طائرة ركاب ووجد نفسه أثناء تدريب على الطيران قريباً من طائرة خطفها إرهابيون وكانوا على وشك تفجيرها عبر توجيهها نحو مبنى ضخم آهل بالسكان.

كما كان في حالة برجي التجارة الدولية في نيويورك عام ٢٠٠١. أمام خطر قتل عدة آلاف. إنقاذ هؤلاء يقتضي بالضرورة إطلاق صاروخ على الطائرة «المخطوفة» وإسقاطها مما يعني بالضرورة قتل عدة عشرات من الركاب الذين يستقلّونها. فما العمل؟

يؤكد المؤلف انه ليس من السهل الإجابة على مثل تلك المعضلة الأخلاقية. ذلك أن المعنى سيجد نفسه أمام خيار صعب بين ما يملي عليه واجبة كقبطان طائرة وواجبه كإنسان. إنه الخيار الصعب. ولكن قد تكون القاعدة الذهبية في مثل تلك الحالة هي اختيار أقل الشرّين ضرراً. هذا على خلفية الإدراك أن هناك مأساة أخلاقية تلوح في الأفق.

إذ من أجل إنقاذ حياة الآلاف من الأبرياء قد تكون التضحية بحياة عدة عشرات مقبولة للأسف. المثال السابق ليس سوى حالة قصوى بين عدة مواقف وحالات يمكن أن يواجهها البشر. إذ هناك العشرات من المعضلات التي تسببها الطبيعة المتبدّلة للحرب الحديثة. مثل هذه المواقف هي التي يتعرّض لها دافيد فيشر بالتحليل ويحاول تقديم بعض الإجابات عليها.

تتم في هذا السياق مناقشة الحرب الأميركية الأخيرة في العراق على ضوء ما يسمّى بالتدخل الإنساني من أجل مساعدة المدنيين ودرء الخطر عنهم.بكل الحالات هناك دائماً في مجال البحث بالحروب تمايز كبير بين المسائل الأخلاقية والإجابات الموضوعية عليها.

ذلك أن المسائل الأخلاقية هي ذات علاقة عضوية بالآراء الشخصية للبشر ولما يفضلونه. لكن المؤلف يصل، على الاعتماد على نمط تفكير يعود إلى أرسطو وفلاسفة اليونان القدماء، إلى القول انه توجد دائماً سبل عقلانية للإجابة على الأسئلة ذات الطبيعة الأخلاقية. وعلى أساس هذا المنطق الأخلاقي وعلى مفهوم الحرب العادلة يحاول المؤلف تقديم نوع من الدليل الذي يمكن الاسترشاد فيه لحل تحديات الأمن في هذا القرن الحادي والعشرين.

تجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب يمثل بأحد جوانبه نوعاً من التحقيق حول الفكر الديني ـ المسيحي ـ والفكر العلماني حول الحرب وحول ما يسمى بالحرب الوقائية والتدخل الإنساني واللجوء إلى التعذيب والقصف الإستراتيجي.

وغير ذلك من مظاهر الحروب الحديثة. وبالوقت نفسه إنه كتاب عن الحياة والموت والحرب والسلام. وعن علاقات البشر فيما بينهم وعن أخلاقيات استخدام القوة المسلّحة.

وينتهي المؤلف في المحصلة النهائية لتحليلاته عن العلاقة بين الأخلاق والحرب إلى القول انه لا يمكن لأحد، مهما كان الموقع الذي يشغله في زمن الحرب من صناعة القرارات وحتى ساحة المعارك أن يتجاهل الخيار الأخلاقي المترتب عليها. وهذا يعني خاصة المنخرطين مباشرة فيها من الجندي في الخنادق وحتى القائد الأعلى للجيوش.

الكتاب: الأخلاق والحرب
تأليف: دافيد فيشر
الناشر: جامعة اكسفورد ٢٠١١
الصفحات: ٣٢٠ صفحة
القطع: المتوسط